

الجنون

"بصراحة، انا رأيت انه يجب وضع الشرق الاوسط برمته في مخبر صحي كبير والامتناع كليا عن التعامل معه". هكذا كان يتكلم احيانا احد كبار مسؤولي الديبلوماسية الفرنسية. كان ذلك في اواسط الثمانينات في عز قضية الرهائن الاجانب المحتجزين في لبنان. كان الجو ملائما آنذاك لمثل هذه الصراحة اللاذعة. ومع ذلك كان هذا الكلام مثيرا للنفور. فحتى لو كان السامع قد فقد اوامره حول الاستنهاض العربي، الا انه كان مقيما على شيء من الممانعة او المكابرة يحول دون اقراره بالطابع المرضي الذي بات يلزم العديد من التصرفات العربية. ولكن، هل ما زلنا نقدر على المكابرة؟ أليست الفضيلة ان نعترف ان ما نعيشه هو حال من الجنون الخالص؟

عندما تصل الامور الى ان تأمر محكمة ما بفصل زوجين متفقين ومتضامنين تضامنا كاملا، بناء على طلب شخص لا علاقة له بأي منهما، لا يعود الكلام عن التخلف كافيا، ولا تفيد فذلكة حيثيات القرار، او التساؤل عن مدى ملائمة الاصول الفقهية. امام فطاعة كهذه، لا جدوى الا بالعلاج الطبي. والعلاج هذا مطلوب اولا من الميئات القضائية المصرية. وفي حال تخلفت عن ذلك يبقى مطلوبا من السلطة السياسية المصرية، في معزل عن درجة المسؤولية التي تتحملها في هذا الانحدار العقلي.

علاج طبي، نقول، لأن المطلوب الآن من كل من بقي له نرة من العقل، ونحسب الرئيس حسني مبارك من هؤلاء، ان يبطل قرار المحكمة كما ابطلت المحكمة زواج نصر حامد ابو زيد، من خلال اعلان جنون "القاضي" صاحب الحكم. قد ينطوي ذلك على تعد على استقلالية القضاء، لكن التعدي سيظل اخف وطأة واكثر قبولا من الخرق العجيب الغريب الذي جعل محكمة مصرية تتدخل في تحديد ماهية "الكفر". المطلوب انما خطوة دراماتيكية تضع حدا للجنون قبل ان نصبح جميعا نزلاء مصح عقلي تمتد اسواره من المحيط الى الخليج. بعدها فقط نعود لنبحث في اسباب هذا الجنون وفي مسؤولية السلطات والمراجع الدينية والمنتخبين. بعدها فقط نبحث في "المؤامرات" التي تشوه "صورة الاسلام والعرب".

ليس الرد على الجنون مطلوبا فقط من القضاء المصري او من السلطات السياسية المصرية. انه مطلوب في الدرجة نفسها من كل من يرى في الاسلام مصدر الهام لحياة عصرية. فليست المسألة معركة بين العلمانيين والاسلاميين. على العكس، قد يكون اهم عنوان في المعركة الواجب خوضها سحب ورقة الاسلام من يد الظلاميين. وقضية نصر حامد ابو زيد تصلح بامتياز لاجاد توازن جديد بين الفكر الديني المتنور والفكر العلماني.

غير ان لا مجال لمثل هذه المعركة ولا جدوى للبحث في اي توازن ما لم يتم بادئ ذي بدء توصيف مكن الجنون ودفعه عن.

سمير قصير